

الشيخ أبو العيون

تقديم

لا زلت أذكر تلك العبارة المؤثرة التي قالها لي شيخنا محمود أبو العيون رحمه الله في عدة مناسبات ، وكأنه يبعثها خفقة لوقتها من فؤاده : « إنك ستكتب تاريخي بعد موتي في يوم من الأيام » . . . لا زالت هذه العبارة كأنها ترن في أذني مجلجلة ؟ ولقد طالت صبحي للفقيه الكريم حتى زادت على خمسة عشر عاما ، خاططه فيها وحادثته ، ووافقته وخالفته ، ورأسلته واستكتبته . . .

فلما قبضه الله إليه عقيب جفوة عارضة بيني وبينه ، نسيت الجفوة وذكرت الكلمة ، وبدا لي كأن سماعي لها من فة عدة مرات قد صار عهدا يجب الوفاء به ، ولذا كتبت عن الفقيه للأهرام ، وكتبت عنه في منبر الشرق ، وكتبت عنه في المقطم وفي مجلة الاعتصام ، ودعوت إلى تأبينه ، وأقيم لذلك احتفال مشهود في دارالشبان المسلمين ؛ وهأنذا أسجل هنا كلتي المبسوطة عن الفقيه ، لعل فيها قضاء لامهد ووفاء بالميثاق . « أحمد الشرباصي »

والعالم ، حتى ثارت ثائرتهم ، وضح ضجيجهم ، وأخذت التهم والافتراءات تنهال منهم جزافا على رأس الشيخ ، وكان أخفها أنه يسوق طلابه إلى التحلل والعبث ، وبلهيم عن العلم ومكارم الأخلاق . .

واحتمل الشيخ صابرا ما سيق إليه ، أو ما نصب عليه ، ودارت الأيام دورتها ، وما هي إلا سنوات قلائل حتى رأينا الأزهر الذي ثار بالأمس على أبي العيون ، لأنه أنشأ فرقة كشفية في معهد أزهرى ، ولأنه أنشأ فيه فرقا للكرة وحمل الأثقال والرحلات وغيرها ؛ رأينا هذا الأزهر يصل إلى ما سبق إليه أبو العيون ، فيصبح في ميزانيته باب خاص واعتماد ضخمة للألعاب البدنية ، والفرق الرياضية ، و . . . وفرقة التمثيل الأزهرية . . .

وهكذا يكون المصلحون دائما ؛ لو قنعوا بالموجود بين أيديهم وأيدي أمتهم ، لما تم إصلاح ، ولما جاء تطور وتجديد ؛ بل عليهم أن يقفوا القفزة الواسعة الملائمة لنموهم وعبقريتهم ، ثم يحاولوا بعد ذلك أن يشدوا أمتهم إلى ذروتهم ، فإن تعجل النصر فيها ونعمت ، وإلا فقد رسموا الطريق ، وأرسوا الأساس . . .

ومما أذكره هنا أن إنشاء الشيخ لفرقة الكشف هذه دعاني إلى تأليف كتابي الأول « حركة الكشف » ، وجعلت إهداءه إلى الشيخ ففرح به كثيرا ، وتقبل ما وجهته إليه

رحم الله شيخنا أبا العيون . . . لقد كان رجلا والرجال في الدنيا قليل ؛ وكان من الصفوة المجاهدين ، والخيار دائما سراع الخطا إلى رحاب الخلود . . .

سمعت باسمه وقرأت له وأنا فتى صغير أطلب العلم بالمعهد الابتدائي في دمياط ، ثم رأيته بعد أن انتقلت إلى معهد الزقازيق الثانوي ، وقد أقبل شيخا له ، فرأى المعهد في أيامه وعلى يديه العصر الذهبي الجميل في تاريخه ، بما أجراه الشيخ فيه من تهذيب وإصلاح . . .

جاء فأصلح المبنى والمعنى ، ونهض بالطلاب ، وحرص العلماء على العمل الدائب الموصول ، وأخذ أبناءه بوجوه من الإصلاح الاجتماعي والثقافي والأدبي والرياضي ، كانت سببا في نقلهم من حال إلى أحوال ، لأنها كانت جديدة عليهم ، وما كانوا يومها يؤملون أن يبلغوها ؛ ولكن أبا العيون المجدد السباق كان يطفر في إصلاحه ، وكان يسبق أهل بيته وزمانه ، وكان يمد عين خياله لتضرب في أحشاء المستقبل ، فيدرك أن هذا الجديد الغريب سيصبح بعد قليل أمرا مألوفا ، وواجبا مطلوبا ؛ وكذلك كان .

لقد سبق الشيخ أبو العيون زمانه سبقا ملحوظا حين أنشأ في معهد الزقازيق التابع للأزهر الشريف أول فرقة للكشف عرفت الأزهر في تاريخه ، وكان ذلك في سنة ١٩٣٥ م ، وما كاد هذا الخبر يصل إلى كبار اللحي

في الكتاب من نقد تقبلاً جميلاً ، ورفعت نسخة من هذا الكتاب إلى جلالة الملك فاروق في سنة ١٩٣٦ ، ففضل جلالاته وأذن بإرسال خطاب شكر كان خير تحية يومئذ لهذا الكتاب

ولقد أحسن الشيخ أبو العيون الجمع بين قديم أزهره وحديث الناس . . . فقد لاحظ الناقدون في مطلع القرن العشرين أن في مصر طائفتين تباينت في الثقافة والتفكير ؛ الطائفة الأولى هي الطائفة الأزهرية ، التي قنعت بزادها الشرقي القديم ، تقتات منه وتعكف عليه وتغنى فيه ؛ وتنأى بنفسها بعيداً عما جد في العالم من آداب وعلوم وفنون ، بل وتنظر إلى بعض هذا الجديد على أنه عنصر من عناصر الإلحاد والكفران ، فهي لذلك لا تكتفي بهجرانه ، بل وتسرف في محاربته وعدوانه ؛ مع أن هذا الجديد كان ينطوى على كثير من الخير ، وعلى كثير من النفع ، وإن يكن في الوقت نفسه قد ضم قشوراً وفضلات

والطائفة الثانية هي الطائفة التي تثقفت في المدارس ، أو في الجامعات الحديثة ، أو في خارج الديار ؛ وكانت هذه الطائفة بعيدة أو مقطوعة من الثقافة الإسلامية والعربية ، فهي لا تعرف منها شيئاً ذا بال ، وهي لا تغار عليها ، وهي لا تفكر أن تلقح ثقافتها الجديدة بهذه الصبغة القومية التي تصلها بالإسلام والعروبة ؛ مع أن هذه الثقافة الحديثة في أشد الحاجة إلى هذه الثقافة الشرقية القديمة ، حتى يخرج من تلاقيهما مزيج صالح نافع ، يجمع بين القديم والجديد ، فيرتكز بقدمه على أساس وطيء ، ويندفع بجديده إلى غايات يتطلبها ركب الحياة الدائم المسير

وكانت الطائفتان تتحاربان كثيراً ، وتتقاذفان التهم والمسبات ، فأهل الثقافة الشرقية القديمة يعتبرون المحدثين في ثقافتهم ملحدين وجهالاً ، وأصحاب قشور لا تجدى ولا تنفع ؛ وأهل الثقافة الحديثة يعتبرون هؤلاء القدماء كالآثار البالية الجامدة ، التي لا تصلح لهضة ، ولا تنهياً لبعث في هذه الحياة

وكان المشفقون على أمتهم يثمنون أن توجد فيها طائفة وسط ، ليس فيها جمود القدماء ، وليس فيها جموح المحدثين ، بل فيها رزانة هؤلاء وثقافة أولئك ؛ وشاء ربك أن يطلع في سماء مصر نجوم قليلة كوَّنت هذه الطائفة ، إذ اغترفوا

ما قدروا عليه من ثقافة عقيدتهم وعروبتهم ، ثم نهلوا أيضاً من المنابع الصافية التي جاءتهم مع هذه الحضارة الجديدة والمدنية الطارئة ، فأوجدوا بذلك الحلقة المفقودة التي تمنها المشفقون ، لتربط بين القديم والجديد ، برباط فيه اعتزاز بالماضي الكريم ، وفيه مجازاة للحاضر الطريف

ولقد كان الشيخ أبو العيون — رحمه الله — أحد أولئك النجوم . . . كان بين قومه أزهرياً محافظاً ، بزيه وسمته ولقته وثقافته وأخلاقه ؛ وكان مع المحدثين رجلاً عصرياً ، يعرف الأدب والثقافة ، ويتكلم في مسائل الاجتماع ، ويشاطر في أمور الوطنية ، ويحضر ندوات السياسيين والكاتبين والصحفيين فيدلي بينهم بدلوه ، ولا يتقاصر عن مستواهم بفهمه وفكره ؛ ومن هنا استطاع أن يفيد كثيراً ، وأن يستفيد كثيراً ، أفاد مجتمعه بأن قدم إليه زاد رجل الدين في حلة قشوية جذابة ، واستفاد أن شيد لنفسه مركزاً ملحوظاً بين كبار قومه وأساطين أمته

وكان الشيخ رحمه الله خبيراً بإصلاح المجتمع ، يعلم أن البيئة المتحللة الفاسدة ، التي طال عليها الأمد ، حتى قست قلوب أبنائها ، واتسعت مسافة الخلف بين سلوكهم وبين دينهم ، لا يستقيم أمرها دفعة واحدة ، ولا تنبت أرضها في يوم وليلة ، بل هي في حاجة إلى التطور والتدرج ، وإلى طول المعالجة والتمريض ؛ وتلك سنة الدعوات الإصلاحية ، بل تلك طريقة الأديان السماوية ؛ وأمامنا الإسلام ، فقد جاء والعرب في فوضى أخلاقية فاشية ، فلم ينزعهم منها إلى نور الإيمان واستقامة الأخلاق دفعة واحدة ، بل ساسهم خطوة خطوة ، ونقلهم إلى تعاليمه مرحلة مرحلة ؛ وهدية في تحريم الخمر على مراحل ثلاث أسطع برهان

وبهذا التدرج أخذ الشيخ أبو العيون في معالجة ما خصص نفسه لعلاجه من أمراض المجتمع الذي يعيش فيه . لعل الناس يذكرون مثلاً أن الشيخ نازحاً حينما لجأ النساء العاريات على الشواطئ إلى ارتداء ثوب للاستحمام في البحر مكوّن من قطعتين ، الأولى على الثديين ، والثانية بين الفخذين ؛ وبقية الجسم الأتوى الواجب ستره مكشوف للأبصار

وحصر الشيخ ثورته في المطالبة بأن يكون ثياب البحر للنساء من قطعة واحدة ، وكفى وذهبت إلى الشيخ

وإذا غضب يوماً لكرامته — وهى أعز شئ عنده — فهو سريع العودة إلى الرضا ، ما دامت الأمور قد عادت إلى مجاريها . . .

ولقد رأيته مراراً وهو يحاسب مرءوسيه على أخطاء وقعت منهم ، ثم يظهر لهم غضبه من هذا التفريط ، ثم يعود بعد ذلك فيرضى ذلك المرءوس ويتظاهر بالاعتذار إليه ، كأن الشيخ هو الذى أخطأ ؛ وله فى ذلك مواقف كثيرة سائرة .

ويتبع هذا الرضا فى النفس أن الشيخ كان متواضعاً واسع التواضع ، لم يفخر يوماً بجاه ولا بمنصب ولا بشهرة ؛ وكثيراً ما استغل السفهاء أو الوقحاء هذا التواضع عند الشيخ الجليل فتناولوا عليه ، أو فرطوا فى توقيره واحترامه ؛ لأننا درجنا فى بيئتنا مع شديد الأسف على أن نحترم المتحفظ المتعالى المترفع ، أو نخشاه ونخافه بمعنى أصح .

وأما الرجل العظيم — إذا تواضع لنا واختلط بنا وتناسى عظمته معنا — فإننا نتناول عليه وتناسى إليه ، وننسى أو تناسى أننا أقزام بجوار عملاق ، فنحاول أن «تعملق» أو أن نجعله قزماً مثلنا ؛ وهيات ! . . .

وقد كان الواجب يقتضى أن نحترم العظيم المتواضع مرتين ، نحترمه مرة لعظمته الباتية التى وصل إليها بعلمه أو دينه أو جهاده ، ونحترمه مرة أخرى لأنه تناسى هذه العظمة ، وتنزل من ذروته إلى مستوانا . ولكن لمن تقول القول وأكثرهم لا يستحون ؟ ...

على أن الشيخ كان يفخر بشئ واحد... وحق له أن يفخر به . . . كان يفخر بمواقفه فى الثورة ، وبمجاهرته الطويلة للبقاء ، وبمجاهدته للسفور القاضح ؛ ولقد سمعته مراراً وهو يردد علينا ما كان منه وما وقع له فى تلك الثورة ؛ ولبت الأسباب تنهياً لتقييد هذه الذكريات وجمعها ؛ إذن اصارت غذاء للذين يترسمون خطأ الأجداد ...

وامتاز الشيخ رحمه الله بناحية أخرى . . . إنه رجل عرف رسالته فى الحياة ، ورسم خطته ، وحدد هدفه . ثم بدأ المسير وواصله وهو على بصيرة من أمره ، يعرف ماذا يصنع ، وماذا يجاهد ، وماذا يريد ! ...

عرف أن رسالته فى الحياة هى أن يكون داعية إصلاح وأخلاق ، ورسم خطته بأن حصرها فى مجاهدة مشككتين

غاضبا فيمن ذهب ، وكنت يومها لا أزال طالباً ، وقلت له : أهذا كل ما تطالب به وأنت الشيخ الغيور الوقور . . . أن يكون ثوب البحر للنساء من قطعة واحدة ؟ . . . معنى هذا أنك راض عما يكشفه الثوب الواحد من أذرع وسيقان وغير ذلك ، ومعنى هذا أنك راض عن سفور المرأة بهذا الشكل المزرى على الشواطىء ، ومعنى هذا أنك راض عن اختلاط النساء بالرجال فى البحر ما دمن بثوب مكون من قطعة واحدة ؛ ومعنى هذا . . .

وتبسم الشيخ وأجاب : إنك لا تستطيع أن تجعل من البغى قديسة فى ليلة واحدة ! . . . بل لا بد من استدراجها والصبر عليها ، حتى يسهل نقلها من فجورها وفسقها إلى طريق الهدى والرشاد . . . وليس كل ما أريده فى الواقع هو أن يكون ثوب البحر للمرأة من قطعة واحدة ، ولكن هذه خطوة يسهل تنفيذها ، وبعدها خطوات ، ولن نستطيع أن نصل إلى الحلال الكامل حتى نخوض إليه الحرام خوفاً ، ولا بد للصلح من الإغضاء مؤقتاً عن هفوات وهفوات ، حتى يأتى الوقت المناسب للتطهير والاستئصال . . .

وبمثل هذا المنطق إذن قد نستطيع أن نفسر سرَّ استقبال الشيخ أحياناً لبعض السيدات أو الآنسات السافرات ، ليتحدث معهن فى أمر من أمور الدين أو الأخلاق ، فقد كان يرى أن هؤلاء النسوة فى مفترق الطرق ، فإن تركناهن وشأنهن ، ضلن الطريق وأسرفن فى الابتعاد عن حمى الحجاب والحشمة والأخلاق ، وأما إذا تلاقين معهن ، مغضين النظر مؤقتاً عما هن عليه من تفريط فى أمر الحجاب والحشمة ، فقد نستطيع بعد قليل أن نجتذبهن إلى سواء السبيل ؛ لأن المرأة الحديثة تخاف رجل الدين ، وتستثقل ظله ، وتراه حجر عثرة فى طريق نهضتها وحريتها ، وما ذلك إلا لأنه يغلظ لمتحللات القول ؛ ولو أن رجل الدين أحسن التأتى إلى موطن الإقناع فى نفس المرأة ، وأطلعها على جوانب السماحة والسهولة فى الدين ، لاقتطعها من بيئتها المتحللة ، واستطاع فيما بعد أن يفرس فيها فضائل الحجاب والعفة شيئاً فشيئاً ، وبطوعية منها واختيار .

وكان الشيخ رحمه الله رجلاً بساماً متفتح القلب بشوش الوجه ، تعلوه سماحة الملامح طيلة حياته ، وكان لا يعرف الغضب ، بل يحاول فض المشكلات بروح الود والتفاهم ،

وجهة نظر

إن إدارة المعارف ما زالت مصممة ، على أن البلاد لم تصل حتى الآن إلى درجة من الثقافة والرقى ، بحيث يجوز لها أن تقيم عاقبة للتمثيل والاحتفالات ، وأن ذلك من الترف الذى يجب ألا تبذره المعارف مالىتها الآن . ولا شك أن المعارف تقع فى خطأ جسيم إذا ما فكرت هذا التفكير . فالبلاد اليوم بأمر الحاجة إلى قاعة محترمة فى مركز متوسط من البلاد ، فعدم وجود القاعة هو الذى يحرم فرق التمثيل فى البلاد — سواء كانت فرقاً من من المدارس المختلفة ، أو فرقاً لهواة محترفين ، أو حتى من الفرق الخارجية — من الإكثار من عرض رواياتها . فليس لديها من المسارح إلا المسرح المفتوح الصيفى الفلق الذى لا يمكن أن يفي بمطالب التمثيل من حيث النور والصوت إلخ ... وكذلك فى المناسبات والاجتماعات القومية والدينية لا يوجد مجمع معين يلم الشعب ، فكلتُقدم المعارف على هذه الخطوة ، ففيها تشجيع كبير للحياة الثقافية والاجتماعية بالبلاد ...

« ... »

من أخطر المشكلات فى المجتمع وهى البغاء والسفور ، وحدد هدفه وهو الوصول إلى إلغاء البغاء وإخضاع هذا السفور لما أمر الله ، وصار على الطريق مجاهداً ، يكتب ويخطب ويراسل ويحتج ويشور ، وشاء الله له ألا يحرمه من قطف الثمر ، فشهد إلغاء البغاء قبل أن يتوفاه الله ، وفى محاربة السفور وصل إلى أن نبتت فى الحمى نابتة ترى فى الأخلاق الكريمة عزها ، وفى العفة تاجها ، وستكون هذه النابتة بمشيئة الله طليعة نصر يتكشف قريباً عن استقرار لقواعد الأخلاق والفضيلة فى هذا البلد ...

وليت كل رجل من رجال الدين فى الأمة يفعل مثلاً يفعل أبو العيون .. إنهم لو انتهجوا نهجهم لوصلوا فى دعوتهم إلى الكثير من الخير ؛ لأن عيب رجال الدين أنهم لا « بتخصصون » فى أرجاء دعوتهم ، بل يتحدثون إلى الناس حديثاً عاماً عابثاً ، لا يتناول المشكلات بالتفصيل والتحليل ...

ولو أن كل واحد منهم تناول مشكلة من مشكلات الحياة كالربا أو الخمر أو الميسر أو الزنا أو الكذب أو التدخين أو الترف ، أو غير ذلك من العيوب أو المفاصد ؛ وعكف عليها يدرسها ويعرف أسبابها ويحدد وسائل علاجها ، ويتفرغ للحديث عنها ، وإرشاد الناس إلى الصواب فى أمرها ، لوصلنا بذلك إلى خير كثير .

أما بعد . فلننا نسطنح البكاء والعويل حين نتحدث عن أبي العيون وقد أصبح خبراً فى التاريخ ، فما من شيمتنا ذلك فى التأبين والثناء ، بل ذلك شيمة الضعفاء أو السفهاء من الناس ، ولكننا نريد تجلية القدوة ورسم الأسوة للمتشبهين ، ولقد عاش أبو العيون رحمه الله حتى شارف السبعين من سنواته ، وذلك عمر فى عرف الناس ليس بالقليل ، ولكنه رحمه الله قضى هذا العمر الطويل مجاهداً مناضلاً ، يرتفع صوته فى كل محنة نازلة ، ويدافع عن الأخلاق والحرمات فى كل منزلة ، حتى شغل بذلك الناس وملأ الدنيا ؛ ورحل إلى ربه راضياً مرضياً ، فليس بكثير عليه أن نتوجه إلى الله سبحانه نسأله أن يسكنه فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ! ...

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف